نظرات في كتـــاب
الفكر الاجتماعى
للأستاذ كامل كيلانى

- ١ -

فى فترة عارضة من فترات السآمة والملل ، أعقبت ساعات جاهدة من العمل ، فتحت هذا الكتاب كما اتفق ، فكان أول ما وقعت عليه عيناى تلك الصورة التى قدمها المؤلف ، حين عرض لعبادة العرب للأشجار والحجارة[1] ، وهى تمثل للقارىء لونا عجيباً من أخيلتهم ، وترسم صورة رائعة مما استقر فى أخلادهم ، وتجلو بعض ما كانوا يتناقلونه من الأساطير عن معبودتهم « العزى » التى كانوا يتخيلونها شيطانة ثائرة ، تبدو — لمن رآها فى صورة حبشية غضبى — ، تأتى ثلاث سَمُرات (شجرات من أشجار الطلح) نافشة شعرها ، واضعة يديها على عاتقها ، وهى تصرِّف بأنيابها (تسحقها وتحك بعضها ببعض حتى يسمع لها صوت) .

وما كدت أبلغ قول المؤلف الفضال :

« وكذلك كانت عبادتهم لذات أنواط ، فقد اعتقدوا أن معبوداتهم الحية كانت تحل تلك الأشجار والأحجار » .

حتى طويت الكتاب ، على عادتى كلما بلغت من المطالعة فترة يحسن الوقوف عندها ، والتفرغ لهـا . وسرعان ما استغرقنى التفكير ، وأسلمنى التأمل إلى عوالم فسيحة من الحقائق التى تفوق الخيال فى غرابتها ، ولم أعالك أن رجعت القهقرى حتى بلغت العصر الجاهلى الذى طالما عشت فيه ، تارة فى صحبة مؤرخى العرب والفرنجة ، وتارات فى صحبة المبدعين من الشعراء والكتاب وبا طالمـا نعمت بالتجوال فى ذلك العصر الثائر ، وأنست بارتياد روائعه فى رفاقة أستاذى « المعرى » . وطالما انتفعت بإشاراته فى رسالة الغفران وما إليها من بديع آثاره . كما انتفعت بصحبة العلامة « دوزى » فى ارتياد كثير من تلك المجاهل السحيقة ، حين ترجمت طائفة من فصوله الممتعة التى أودعتها كتاب : « ملوك الطوائف ونظرات فى تاريخ الإسلام » .

فلا عجب إذا عاودنى الحنين والشوق إلى استئناف الدرس حين طالعت تلك الفقرات :

« وذو الشوق القديم — وإن تعزى —
مشوق حين يلقى العاشـــقينا »

ولا عجب إذا توائبت الخواطر ، وتدافعت الذكريات ، فلم أدر أيها أثبت وأيها أدع ، ولا عجب إذا نسيت أن على أكتب مقدمة موجزة فى بضع صفحات ، لا دائرة معارف فى عشرات من الأسفار المطولات :

ورأيتنى أستعرض — عن غير قصد — طائفة من أمثال هذه الأسـطورة العربية الشائقة التى أثبتها المؤلف الفضال فى كتابه النفيس ، متمنياً أن يتعاون معه طائفة من أعلام القصة لاستغلال أمثال هذه الأسطورة العربية البارعة ، بعد أن تظاهرهم طائفة من كرام الباحثين على درس هذا التراث الحافل ، وتعرف رموزه وحل معمياته ، وتجلية ما غمض من خوافيه وأسراره ، وأن يُعنوا بإحيائه كما عنى غيرهم من شعراء الغرب وأعلام كتابه وباحثيه ، وأفذاذ علمائه وقصاصيه ، باستغلال ما ظفروا به من الأساطير الإغريقية وما إليها من أساطير الأمم القديمة .

ولم أتمالك أن شكرت للمؤلف عنايته المحمودة بهذا اللون الفكرى البديع . ورأيتنى أجرى على عادتى فى التعليق على هامش ما أقرأ من نفائس الكتب .

وانثالت المعانى والصور وتتابعت ، حتى خشيت — كما أسلفت — أن تدفعنى إلى تأليف سفر ضخم . فاجتزأت بإثبات بعض ما قاله « المعرى » فى هذه الشجرة المحظوظة التى أطلقوا عليها « ذات أنواط » ، فقد أشار إليها فى رسالة الغفران إشارة نافعة حين عرض للحديث عن أشجار الفردوس فقال :

« وذات أنواط شجرة كانوا يعظمونها فى الجاهلية . وقد روى أن بعض الناس قال : يا رسول الله : اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط » .

وهنا قبس « المعرى » قول أحد الشعراء :

« لنا المهيمن يكفينا أعادينا كما رفضنا إليه ذات أنواط »

وفى بعض هذا دليل على ما بلغته ذات أنواط من خطر الشأن ورفعة المنزلة .

وقد شغل المعرى — فى أكثر من موضع من نفائس

---
(١) أنظر صفحة ١٠١ من الكتاب .

كتبه — بهذه الشجرة ، التي ظفرت — على حقارتها — بمثل هذا التكريم ، وأفردها الحظ بما لم يظفر به غيرها من إجلال وتعظيم ، فأضفى عليها عبادها من القداسة هالة باهرة ، فتنتهم وسحرت ألبابهم واستعبدتهم . فأكبروا من أمرها ما صغر ، وعجدوا من شأنها ما حقر ، ولم يكتفوا بعبادتها في جاهليتهم ، فراحوا يكاثرون الرسول صلى الله عليه وسلم بها ، ويطالبون إليه أن يهيىء لهم شجرة تماثلها وتساميها في قداستها وشرفها .

وهكذا أدركها الحظ — على عقمها من الثمر — كما يدرك بعض الأغمار التيفهين من الناس ، فيضفي عليهم ألواناً من النباهة والرفعة ، على ما ركب في طباعهم من العقم والحقارة والعجز .

وفي هذا يقول المعري :

« والجد يدرك أقواماً فيرفعهم   وقد ينال إلى أن يُنشِد الحجرا

وشرفت ذات أنواط قبـــائلها

ولم تباين — على علاتها — الشجرا »

وكانت « ذات أنواط » سمرة (شجرة طلح) ، لا تكاد تختلف عن تلك السُّمرات الشائكة الثلاث التي كان الجاهليون يتخيلون معبودتهم « العزى » قادمة عليها في صورة حبشية .

ولا تختلف عن السمرات التي أشار إليها امرؤالقيس في معلقته حين قال :

« كأني غداة البين ، يوم تحملوا   لدى سمرات الحي ناقف حنظل »

وشجر الطلح معروف ، وقد أشار إليه المرحوم شوقي بك حين قال :

« يا ناعم الطلح أشـــباه عوادينا

نأسى لواديك ؟ أم تأسى لوادينا ؟ »

كما أشار إليه « المعري » ونبه إلى إجداب هذا الشجر ، وعقمه من الثمر ، في قوله :

« وأبغضت فيك النخل ، والنخل يانع

وأعجبني — من حبك — الطلح والضال »

وقد ألف العرب أن يطلقوا على شجرة الطلح « أم غيلان »

وإلى هذه الكنية أشار « المعري » في تهكم بارع :

« سل أم غيلان الصموت عن ابنها

وبنات أوبر ، من أبوها أوبر ؟ »

— ٢ —

والطلح — فيما يعلم القارىء — شجر عظام من شجر العضاه ، الذي لا يثمر غير الشوك ، ترعاه الإبل إذا أعوزها الزاد ، فلا تكاد تستسيغه إلا مضطرة ، وقلما تسلم من غصصه وعلله . فلا عجب إذا اتخذوه رمزاً للشر ، وصاغوا من « السَّمُرة » لفظ : « السمرمرة » : لقب الغول ، وجعلوا من شجرها مزاراً لتلك الشيطانة الحبشية العضي التي تقدم السمرات الثلاث — كما تمثلها الأسطورة — نافشة شعرها ، واضعة يديها على عاتقها ، تحرُق الأرَّم (تحك أنيابها حتى يسمع لها صريف) من شدة الغيظ .

فلا عجب إذا استخرج العرب — من هذا الشجر وثمره — ألفاظاً تدل على طائفة من معاني الشر ، فاشتقوا الطلاح (الفساد) من الطلح ، كما اشتقوا من ثمره الشائك ألفاظاً منطوية على طائفة من معاني السحر والإفك والكذب والأذية(١) .

فإذا سأل القارىء : «ولماذا خصوا هذه السمرة بهذا اللقب؟ وكيف أطلقوا عليها : « ذات أنواط » ؟ همس في أذنه بعض مؤرخي العرب ، ومنهم « ابن الأثير » .

« إنها سميت كذلك لأن المشركين كانوا ينوطون بها سلاحهم (يعلقونه) ويعكفون حولها » .

وربما همس في أذنه بعض الباحثين : « إنهم أطلقوا عليها ذلك اللقب ، لما تميزت به مما كان يتدلى من أغصانها الكبيرة من أنواط » .

والنوط — كما يعلم القارىء — هو القفة الصغيرة التي تحمل ثمار هذه الشجرة ، السامقة العقيم .

— ٣ —

وهكذا أسلمتني هذه الأسطر القلائل إلى طائفة من التأملات أزاحت ما كان مستولياً على نفسي من السآمة والملل ، ونفضت عني غبار الفتور والكسل ، وأعادت إلى النشاط ، فأقبلت على الكتاب أقرؤه من أول سطوره ، متنقلا بين فصوله الشائقة ، من صفحة إلى صفحة ، حتى انتهيت إلى خاتمته ، وأنا شيق إلى الاستزادة من حديث هذا الباحث الموفق المثمر الذي لا يمل البحث ، ولا يمل قارئه من متابعته في عواله الفسيحة .

ورأيت المؤلف يتنقل بين مجاهل التواريخ التي طويت على مر الأزمان ، وعفى عليها تطاول الأمد ذيول النسيان ، فلم يبق

(١) يقال أعضه الرجل : جاء بالإفك والعاضه : الساحر وحية عاضه : تقتل من ساعتها إذا نهشت .

الدهر — من آياتها وحقائقها وأحداثها — إلا ظنوناً وأحداساً وأخيلة ، لا تكاد تثبت على الاختبار والبحث . ثم لا يزال مؤلفنا ينتقل في فصوله الشائقة حتى يبلغ المدى من رحلته الفكرية ، وينتهي إلى عصرنا الحافل بألوان من الحقائق ، تكاد - لغرابتها - تفوق عجائب الخيال .

— ٤ —

وهكذا صحبت المؤلف وهو يتابع سير الإنسان ، منذ أقدم العصور ، حين كان يقيم مع قبيلته بين الأشجار ، وفي الكهوف وقد اكتسى جسمه بشعر كث يصارع الوحوش ويطاردها في الأدغال ، ويقتات بالبذور ، ويعيش على لحوم فريسته التي يمزقها بأظافره ويقطعها بأسنانه ، كما يفعل أضرابه من الوحوش .

ثم لا يزال المؤلف يساير الإنسان القديم مرتقياً به ، في أسلوب تصويري جذاب حتى يصل إلى العاصر الحاضر ، في قرابة مائتين من الصفحات الحافلة بالملاحظات والتوجيهات ، بعد أن ضمن التوفيق فيما قبسه وتخيره من الكتب : عربية وأجنبية ، وفيما عرض له من تحليل ومناقشة ، وتأليف بين أشتاتها ، وتمحيص لرواياتها ، منذ صحب الإنسان الأول إلى أن أبلغ العصر الحاضر : عصر الآلات والمناجم والبخار والكهرباء والطائرات والسينما والراديو والتلفزيون . ولم ينسه ذلك المعرض الحاشد — الذي افتن في إقامته وتنسيقه — ما وراء تلك الصور المادية من السجايا والأخلاق الإنسانية ونشأة العادات ، وأثر الأديان والشرائع والقوانين في الأفراد والجماعات ، وأي حافز دفع الإنسان إلى منازعة الوحوش في الغابات ، وأي قوة أمكنته من قهرها والتغلب عليها ، بفضل ما منحه الله من عقل وتفكير . وكيف استقبل الإنسان فجر الدينة وهو — فيما يقول المؤلف — : « يتقدم ببطء من جمع الأطعمة إلى الصيد ، ومن الجماعة المشتتة إلى القبيلة ومن ثم يتطور فيشكل نظاما اجتماعيا ، ويوزع الوظائف بين الأفراد . كما لم ينسه أن يعرض لنهضات « مصر » و « بابل » و « فلسطين » و « الهند » و « الصين » و « اليونان » و « الفرس » و « رومة » .

— ٥ —

وقد ألم المؤلف — على ذلك — إلماما بارعة بأنواع الزواج في الجاهلية ، وقبس طائفة من الأمثلة تبين اختلاف نظمها وتباين عاداتها ولم يفته أن ينبه إلى ما ألفته بعض قبائل العرب في زمن الجاهلية « من نسبة أولادهم إلى أمهاتهم قبل أن ينهاهم الإسلام ، وكان نهيه صريحاً في قوله تعالى : « ادعوهم لآبائهم ، هو أقسط عند الله » .

وهي — فيما رأى ويرى غيري من الباحثين — عادة جرى عليها الروم في قديم الزمان ، واهلهم كانوا أسبق إليها من العرب .

وقد أشار المعري في لزومياته إلى هذه العادة ، إشارة ساخرة قاسية ، فقال .

« ولحب الصحيح آثرت الرو م انتساب الفتى إلى أمهاته
جهلوا من أبوه ، إلا ظنونا وطلا الوحش لاحق بمهاته »

— ٦ —

أما بعد :

فقد كانت مفاجأة سعيدة ، حين تفضل مؤلف هذا الكتاب النفيس فمهد إلى بتقديمه ، ولم يكن عمر التعارف بيننا يزيد على دقائق معدودة ، كانت كافية للتآلف . ولا غرو في ذلك فإن الأرواح جنود مجندة ، ما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف .

وهكذا أغنت اللحظات القليلة عن العشرة الطويلة ، وكانت — على قصرها — كافية لانسجام روحينا ، تخيل إلينا أننا تعارفنا منذ النشأة الأولى وكان من ثمرات هذا اللقاء العارض أن عرفت شغف المؤلف بالبحث والاطلاع ، وعنايته بتتبع آثار « ابن النديم » صاحب الفهرست والترجمة له في مجلة المجمع العلمي العربي(١) . وتوفره على درس الدعوة الإسماعيلية في رسائل إخوان الصفا(٢) وإقباله على كتابة فصول النقد وأعمال البنوك في كتاب : النظام الاقتصادي في فلسطين(٣) .

وكتابه : التطور الاجتماعي والاقتصادي لفلسطين العربية(٤)

وهكذا رأيت مؤلفنا ينتقل في بحوثه الناقعة ، من عالم الاقتصاد إلى عالم الأدب ، كما ينتقل في حياته اليومية بين بنك الأمة العربية ومكتبته الضخمة الحافلة بألوان الثقافة والأدب ، فيذكرنا قول ابن المقفع :

---

(١) انظر المجلد الصادر سنة ١٩٣١
(٢) انظر مجلة الجامعة الأمريكية الصادرة ببيروت سنة ١٩٣٣
(٣) أصدرته الجامعة الأمريكية ١٩٣٩
(٤) صدر عام ١٩٤٧ في القدس

« أمران يحتاج إليهما من يحتاج إلى الحياة : المال والأدب »

ولا ريب أن الأمم — كالأفراد — لا غنى لها عن بناء نهضتها على أساس متين ، يرتفع بناؤه على هاتين الدعامتين .

— ٧ —

وكان من ثمرات هذا اللقاء السعيد أن أتاح لى الظفر بقراءة هذه الخلاصة الممتعة التى تأنق مؤلفها فى عرض تاريخ الحضارة الإنسانية عرضاً تصويرياً أخاذاً ، يخيل إلى قارئه أنه يشهد شريطاً من أبدع ما أخرجته السينما فى العصر الحديث .

وقد علم القارىء مما أسلفت أننى لم أكد أقلب صفحات كتابه حتى رأيت ما تفتحت نفسى له ، وشجعنى على البدء بقراءته من أوله ، فلم تنته الجلسة حتى أتممته ، وأنا شديد الأسف على انتهائه ، وبودى لو امتد هذا السفر التاريخى الحافل فى أضعاف صفحاته ، ليؤدى إلى رواد الثقافة أضعاف فائدته ، ويحقق لهم الكثير مما تتوق إليه نفوسهم الظامئة إلى أمثال هذه البحوث ، التى وفق أصحابها إلى جمع أشتات المعارف ، وأحسنوا عرضها ، بعد أن أحسنوا استيعابها وفهمها .

— ٨ —

وازدحمت الخواطر فى ذهنى — كما أسلفت — وتوالت التعليقات ، كلما انتقلت من صفحة إلى صفحة ، وخشيت أن إعاود قراءة الكتاب مرة أخرى فيضطرنى ذلك إلى الوقوف عند كل فكرة طريفة — وما أكثر ما يحويه من طريف الأفكار — وربما اقتضانى ذلك أن أتوسع فى الشرح والتعليق فتصبح مقدمة الكتاب أضعاف حجمه .

ورأيت أن مؤلف الكتاب كان قادراً على الاضطلاع بمفرده بهذا العبء الثقافى التوجيهى كله ، لو أمكنته فسحة من وقته المزدحم بما ينوء به من شواغل الأعمال ، وما يضطلع به من تبعات ثقال ولكنها الظروف القاهرة ، أعجلت المؤلف كما أعجلتنى ولعله قصد إلى الإيجاز قصداً ليحقق لقارئه فى صفحات قليلة ما تستوعبه المطولات المستفيدة ، وهو غرض نبيل ، والحاجة إلى المختصرات مطلب جليل ، لا يقل عن الحاجة إلى المطولات . وربما زاد عليها فى بدء عصور النهضات ، لترغيب الزاهدين فى القراءة ، وتعبيد ما توعر من طرائقها أمامهم .

وحسناً صنع المؤلف حين عنى بتوجيه قارئه إلى أمهات الكتب ليحبب إليه البحث ، بعد أن عنى بتوجيهه وإرشاده وفتح آفاق جديدة له .

وأما أجدر المؤلفين بالأخذ بهذا المنهج ، فهو من الأهداف النافعة ، يتوخاها طالبو الإصلاح فى مستهل النهضات ، تستقبلها الأمم التى طال عهدها بالنوم ، وآن لها أن تنفض عنها غبار الخمول

— ٩ —

أكرر القول : إننى وجدت فى كل صفحة من صفحات الكتاب بابا للمناقشة وجالا للأخذ والرد والتعليق ، ومثاراً للخلاف حينا ، والموافقة أحيانا .

وهذه أول مزايا الكتاب المثمر الناجح وحسبى دليلا على نفاسة ما أقرأ ، أن يثير فى نفسى ألوانا من البحث والتمحيص ، ويحفزنى إلى ارتياد مختلف الميادين الفكرية التى صرفتنى عنها عوادى الزمن وشواغله .

وقد كان من حسن حظ المؤلف والقارىء أن يتضافر على كاتب المقدمة ضيق الوقت ، وزحمة العمل ، ورعكة الصحة ، وقلة الصفحات المخصصة للتصدير ، فتعجله كل هذه الأسباب مجتمعة عن التفصيل والإسهاب اللذين تحاشاهما مؤلف الكتاب .

وكان من حسنات عصر السرعة الذى نعيش فيه ، وما أوجبته المطبعة التى لا تعرف التريث والبطء ، ولا تبالى الوعكة ولا المرض ولا تحفل الشواغل وزحمة العمل ، أن تعد المقدمة فى حيز من الصفحات ثابت ممدود ، وزمن من الساعات مؤقت محدود . ولولا ذلك لامتد بى نفس القول كما امتد بـ « المعرى » منذ ألف عام ، حين أجاب عن رسالة « ابن القارح » برسالة الغفران ، فى أضعاف حجمها ، وكما امتد نفس القول بالأمير « شكيب أرسلان » حين تصدى لتقديم كتاب « حاضر العالم الإسلامى » ، فزادت صفحات مقدمته على مقدمة « ابن خلدون » ، وتجاوزت شروحه وتعليقاته أضعاف حجم الرسالة التى عهد إليه مترجمها أن يقدمها .

ولا عجب فى ذلك ، فإن نفس القول إذا مددته امتد ، وتداعى المعانى لا يعرف الوقوف عند حد :

« والفكر حبل متى يمسك على طرف

منـــه ، ينط بالثريا ذلك الطرف

والعقل كالبحر ، ما غيضت غواربه شيئاً ، ومنه بنو الأيام تغترف »

كامل كيلانى